مجلة علم النفس

مجلد ٥ أكتوبر ١٩٤٩ – يناير ١٩٥٠ عدد ٢

دراسة لصغار الأطفال

الألوان والخطوط والمسافات
ديناميكا تكاملية

بقلم

كمال زاهر لطيف

« يقولون إن الإنسان فى حاجة إلى قواعد أخلاقية جديدة ، ومعرفة ذاتية عميقة، ليحقق حضارة ذات أسس علمية وفنية .. كيف يأتى لنا أن نصل إلى هذه القواعد أو تتاح لنا هذه المعرفة الذاتية دون فهم عميق للقوانين الميكانيكية التى تحكم التطور فى الطفل » . « أرنولد جزل »

تجتاز الحياة النفسية مراحل معينة يطبعها طابع التكامل سواء فى حالتها الديناميكية أو فى حالتها الاستاتيكية . ويكشف لنا علم النفس التكوينى الذى يدرس تطور الحياة النفسانية فى الفرد منذ طفولته عن هذه الحقيقة ؛ بل هو يقدمها لنا فى أوضح صورها عند دراستنا للنمو البيولوجى والسيكولوجى للطفل متى سلخ من عمره سنتين حتى يصل إلى الرابعة .

وقد وجه العلماء – كل فى ميدانه – اهتماما كبيراً إلى دراسة نمو الطفل فى هذه المرحلة الخطيرة من مراحل تطوره ، سواء كان الميدان البيولوجى أو الميدان السيكولوجى ، ولم يكن أحد الميدانين فى وقت من الأوقات فى غنى عن الآخر

بل لقد تعاون كلاهما على تكوين علم تطور الطفل الذى يدرس الطفل المتكامل : نفساً وجسما .

وعلم تطور الطفل علم الحديث : أما فيما يختص بموضوعه فهو كما ذكرنا نفس الطفل وجسمه يتفاعلان معاً فيحققان التطور فى حياة الطفل ، أما فيما يختص بمنهجه فلم يكن بد من استخدام المنهج الموضوعى ، وقد لجأ العلماء إلى وسائل مختلفة عديدة لتحقيق الغرض الذى يهدفون إليه : فكانت الموسيقى واختبارات الذكاء العملية والتمثيليات الجادة Dramatic plays ، والألعاب المختلفة ، ولعل أهمها جميعاً وأحدثها معاً هو دراسة الألوان والخطوط والمسافات كوسائل للتعبير عما يعتمل فى نفس الطفل ويجيش به وجدانه .

* * *

لمحة تاريخية عن هذه الأبحاث

يرجع فجر هذه الدراسة إلى نهاية القرن التاسع عشر حين أصدر العالم النفسانى الإيطالى كورادو ريشى Corrado Ricci مؤلفا ثمينا عن رسوم الأطفال وقدرتها على الكشف عن طبيعتهم وحالتهم النفسية العامة والخاصة . ثم أعقب هذه المحاولة محاولات أخرى فى أوربا وأمريكا : ففى فرنسا قام عالم يدعى Luquet بتسجيل مشاهداته واختباراته مع إبنته فى كتاب (١) جمع فيه كل رسومها التى عبرت بها من تلقاء ذاتها عن مشاعرها ووجداناتها ، وفى ألمانيا قام العالم Kerschensteiner بجمع ١٠٠ر٠٠٠ رسم ، وتصنيفها وتقسيمها إلى ثلاثة مجموعات تبعا لمرحلة النمو التى تبدو من خلال رسوم الأطفال : فالمرحلة الأولى يتلاشى فيها الموضوع الخارجى ويصبح أشبه ما يكون بفكرة لا أثر فيها للملاحظة المباشرة ، والمرحلة الثانية تتضح فيها معالم الموضوعات الخارجية التى تكون قد درست بدقة ، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتظهر فيها محاولات لإظهار الأبعاد الثلاثة بعناية (٢) . وهناك مؤلف بالإنجليزية للمؤلفة Helda ضمنته رسوم إبنة شقيقتها وقارنت بينها وبين رسوم رجل ما قبل التاريخ .

غير أن هذه الأبحاث لم تكن لتعنى إلا بالرسوم الخطية (التى يستعمل فيها

---

(١) Les Dessins d'un Enfant

(٢) يقسم C. Burt هذه المراحل إلى سبع سيأتى ذكرها فيما بعد .

القلم) فلم تكن أهمية اللون قد ظهرت بعد فى هذا النوع من الدراسة حتى كان عام ١٩٣٧ حين تنبه بعض العلماء الأمريكان إلى أهمية اللون كمعبر قوى عن ديناميكا التطور فى الطفل ، وسرعان ما تجند عدد لا حصر له من العلماء والمساعدين والموظفين فى سبيل العمل على كشف أهمية الدور الذى يلعبه اللون فى حياة الطفل النفسية ، وقد تمخض عن هذه المحاولة مجموعة ضخمة من التجارب والإحصائيات يضمهم مجلدان بعنوان Painting & Personality : A Study of young Children وقد أشرف على تأليفه وإخراجه العالمتان D. La Berta Wiss Hattwick Rosa H. Alschuler,

أجريت هذه التجارب فى مدينة شيكاجو فى خمس دور للحضانة ودرست فيها حالات ما يزيد عن ١٥٠ طفلا ، وفى بعض الأحيان ٤٠٠ طفل واستغرقت دراستها نيف وعشرة عاماً ..

ولعله من المفيد أن نشير إلى حادث طريف كان السبب فى إثارة الاهتمام بموضوع هذا الكتاب خصوصا فى الشطر الأول منه الذى يعالج فيه موضوع اللون . فقد ذكرت المؤلفتان أنه منذ نحو عشر سنوات اجتمع لفيف من رجال التربية المكسيكيين والأمريكان على هيئة مؤتمر فى مدينة مكسيكو . وكما هى العادة فقد أثبتت المقابلات غير المقصودة فى غير مواعيد العمل أنها ذات فائدة جلّى وأثر محمود . فقد حدث ذات ليلة أن كانت إحدى المؤلفتين والدكتور إدوارد ليس Dr. Edward Liss[1] يتأملان مجموعة من الصور المرسومة بالألوان المائية تصور بعض الأساطير عن العشائر المكسيكية . ولفت نظر الدكتور أن الفنان لم يكشف عن الأساطير المكسيكية بقدر ما أزاح الستار عن نفسه هو ، وهكذا تطرق الحديث إلى الكلام عن رسوم[2] الأطفال المليئة بالتعبير . ومن ثم كان هذا الحديث مع الدكتور ليس فى إحدى أمسيات صيف عام ١٩٣٥ السبب المباشر لهذه الدراسة .

وقد بلغ هذا النوع من الدراسات أوجه بين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٥ وفى هذه الفترة حاول بعضهم وضع مقياس لذكاء الأطفال أساسه رسم صورة رجل من الذاكرة ، ولكن لم تفلح هذه المحاولة ، وفى عام ١٩٢٦ نجحت الأستاذة فلورنس جود إنف F. Goodenough فى إيجاد هذا المقياس ، ولكن ثمة طعون وجهت

---

(١) New York City psychiatrist

(٢) نستعمل هنا كلمة رسم أو رسوم لكل مايستخدم اللون أو الخط أو المساحة أوجميعها معاً.

إلى هذا الاختبار بينها وأهمها ما وجهته إليه الأستاذة Ruth Griffiths فى كتاب A Study of Imagination in Early Childhood وسنعود إلى تفصيل ذلك فيما بعد.

* * *

بين العلم والفن

نشطت حركة دراسة الأطفال نشاطاً كبيراً فى أمريكا فى السنوات الأخيرة . ويقول جزل[١] أن هناك دافعين لدراسة الأطفال وطبيعة تطورهم : الدافع الأول يستند إلى اهتمام علمى بالنمو كأسلوب بيولوجى للقوانين الطبيعية ، والثانى اهتمام إنسانى بالحاجات الجسمية والنفسية للطفل الذى يجتاز المراحل الأولى من نموه سواء فى المنزل أو فى المدرسة أو فى المجتمع . وليس ثمة تعارض بين كلا الميدانين ، فالتطور الفسيولوجى لا يمكن فصله عن المجال النفسى الذى يعمل فيه .

لهذه الدراسة إذن قيمة علمية فى غنى عن التدليل ، فهى إلى جانب تمكنها من الكشف عن ذكاء الطفل فى سن مبكرة أى فى وقت يصعب فيه الكلام معه أو الحديث إليه لقلة مفرداته أو انعدامها ، وإلى جانب الكشف عن أسرار التطور اللولبى المتكامل[٢] للطفل فهى تستطيع أيضاً أن تعين حالاته النفسية والوجدانية العامة التى تنتظم حياته فى تلك السن ، والحالات النفسية الخاصة التى تترتب على الانعكاسات الاجتماعية فى زمان ومكان معينين . ومجمل القول أنها تقدم لنا معلومات قيمة عن النمو الذهنى ، والاهتمامات العاطفية ، والمقدرة الفنية والأمزجة الشخصية لكل طفل على حدة كما أنها توقفنا أيضاً على معلومات هامة فيما يتعلق بتطور الإدراك البصرى عند الطفل .

أما القيمة العملية الفنية فهى قيمة تربوية تمتد وتتسع حتى تشمل حياة الطفل وعلاقته بالآخرين . وليس أشد عبثا من أن نظن أن حياة الطفل من السهولة والسواء بمكان ، ولعل هذا الاستعمال الشائع عن « أيام الطفولة السعيدة » هو أسوء فهم لتلك المرحلة الدقيقة فى حياة الإنسان ، فمن الجهل التام بحقيقة الطفولة أن يعتقد أن المشاكل العنيفة التى يمر بها الطفل لا يكون لها ذات الأثر الذى تحدثه

---

(١) Studies in Child Development Forword,

(٢) انظر مقال الدكتور يوسف مراد مجلة علم النفس عدد فبراير سنة ١٩٤٦ من ص ٢٧٣ — ٣٠٤ .

هذه المشاكل فى حياة البالغ ، ويرجع الجزء الأكبر من هذه المشاكل فى حياة الطفل إلى مصدرين : أما الأول فهو المشاكل التى يتسلمها عن طريق الوراثة ، أما الثانى فهو الطريقة التى نحيا بها . وكلما نمت معرفتنا فى هذا السبيل قل تحاملنا على الطفل والبالغ معاً وزاد فى الوقت نفسه اهتمامنا بالتحليل الموضوعى الذى يكون له أبعد الأثر فى الكشف عن اضطراب الوجدان وتقلقل العاطفة واختلال المظاهر السلوكية المترتب على اضطراب فى البيئة الاجتماعية للطفل . ومن هنا يسهل على المربى إعادة المياه إلى مجاريها بإعادة التوافق بين الطفل ومجتمعه ، وتجنب كل ما يثير القلق والاضطراب مستقبلا فى نفسية الطفل . فهذه القيمة العملية لها طابع علاجى يمكن به إزالة الكثير من الضيق والحرج الذى يحسه الطفل فى هذه السن المبكرة التى يساء فيها فهمه فى أغلب الأحيان .

وهناك نوعان من المشاكل تعترض حياة الطفل : مشاكل اجتماعية ومشاكل فردية ، وسنشير هنا إلى المشاكل الاجتماعية أما المشاكل الفردية فسنشير إليها فى حينها.

١ — فى مقدمة المشاكل الاجتماعية التعارض بين دوافع الطفل الداخلية لأن يعمل ما تمليه عليه هذه الدوافع ، وبين ما يرغمه عليه الخارج من وجوب اعتبار قيم معينة وإقامة أبعاد خاصة بينه وبين الآخرين .

٢ — ما يحدث خلال الفترة التى ينصرف إليها هذا البحث (بين الثانية والخامسة) من تباين فى طباع الطفل وتمايز ظاهرى فى اتجاه سلوكه . فبينما نجده يعلق بحياة الطفولة التى تستند إلى غيرها نجده فى الآن نفسه يعمد إلى تحقيق مظاهر السيادة والاعتماد على الذات .

٣ — قدوم وليد جديد فى العائلة يحل محله . ففى الحين الذى نجده فيه يمعن فى الظهور بمظهر الطفولة نجده مدفوعاً من الآخرين إلى أن « يكبر فهو الآن الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى » .

ويمكن أن نضيف إلى هذه المشاكل الاجتماعية الرئيسية مشاكل أخرى عامة تتلخص فى إحساس الطفل بأنه غير محبوب أو غير مرغوب فيه من والديه ، وقد دلت التقارير على أن الطفل لا يحس أنه غير مرغوب فيه حين يكون بالفعل منبوذاً من والديه فحسب بل حين يسرف أحد الوالدين فى تأنيبه أو عدم المبادرة إلى تشجيعه بين حين وآخر .

* * *

الحقائق الأولية التى قامت عليها هذه الدراسة

من المسلم به أن الرجل البالغ مدفوع إلى التكيف مع المجتمع الذى يعيش فيه ، وهذا التكيف برغمه دائما على التنازل عن معالم كثيرة فى شخصيته يخفيها وراء تصرفات إرادية مفتعلة تتفق وتقاليد واعتبارات خارجية ومن هنا كان من أصعب الأمور تحليل شخصية الرجل البالغ ما دام محتفظاً بحقائق انفعالاته لنفسه ، وحتى إذا انتوى التصريح بها فهو يصرح بما لا يجرح شخصه أو يجعله موضع نقد أو سخرية . ولهذا فقد وضعت كثير من الاختبارات [١] للكشف عن نواحى شخصية البالغ أهمها وأكثرها استعمالا هو اختبار رورشاخ والفكرة فيه هى الكشف عما يعتمل فى نفس البالغ مع تقدير سماته الشخصية بطريقة لاشعورية .

والطفل حين يمسك القلم أو الفرشاة ليملأ بها صفحة بيضاء يقوم بما يشبه هذا العمل ، ذلك أن ديناميكا السلوك الصريح overt behavior عند الطفل لا يحول دون ظهورها عامل اجتماعى أو وازع أخلاقى أو شىء من هذا القبيل . وتعلن هذه الديناميكا عن نفسها خلال الأعمال التلقائية Spontaneous التى لم يسبقها تصميم معين لدى الطفل كالتلوين والتخطيط ، واللعب بالصلصال وقطع الخشب ، والتمثيل الجدى Dramatic plays .

ولكن هذه الديناميكا التكاملية لا تقف عند حد ملاحظة الرسوم وما ينتجه الأطفال بوجه عام ولكن كما تقول الدكتورة هانفيك [٢] « كلما تقدمنا فى أبحاثنا تأكد لنا أن دراسة ما يختاره الأطفال من المواد وتصرفهم أثناء استعمالها كان جوهريا لفهم معنى إنتاجهم الأخير » ومن ثم كان اختبار رورشاخ والسلوك التلقائى للطفل متحدى الاتجاه [٣] ، يتضح ذلك مما تقوله الدكتورة أيضاً « قدم إلينا من سان فرنسسكو وليم هـ . بمبرتن [٤] ليختبر ثلاثين من أطفالنا باختبار رورشاخ ، فكانت نتائجه وملاحظاته تتفق إلى درجة كبيرة مع ما انتهينا إليه نحن ، فمن

---

(١) مبادىء علم النفس العام للدكتور يوسف مراد ص ٣٥٧ .

(٢) Painting & Personality. Foreword

(٣) ترى الأستاذة Griffiths أن اختبار رورشاخ لا يصلح تماماً لهذه المهمة عند الأطفال إذ أن الطفل قد يقع تحت تأثير اللون الأسود الذى قد لا يتفق وطبيعته ـ كما سنفصل فيما بعد ـ أو قد تختلط هذه البقع بتلك الكتل السوداء التى لا شكل لها والتى يراها الطفل فى حلمه . وتقترح تعديلا له بأن تجعل البقع ملونة .

(٤) William H. Pemberton, Clinical psychologist of San Francisco.

جهتنا لم تكن اختبارات روورشاخ سوى وسيلة أخرى لتأكيد الحقائق التى انتهينا إليها ».

ويجدر بنا أن نشير الآن إلى أن هذه الديناميكا التكاملية التى يصدر عنها سلوك الطفل هى بدورها تصدر عن مشاكل الأطفال الفردية ، فالطفل فى نموه وتطوره يصادف ثلاثة أنواع من المشاكل الفردية .

أولا : كفاية الحاجات الفسيولوجية الأولية كالجوع ، والعطش ، والحركة ، والراحة ، والنوم .

ثانيا : الحاجات العاطفية اللازمة لنمو الشخصية ، ومشكلة توافق وانسجام الفرد مع الآخرين فى مجتمعه .

ثالثا : المشاكل العقلية .

والخلاصة أن الأطفال يعبرون برسومهم وألوانهم لا عما يرونه ولكن عما يشعرون به ، فهم حينما يجتازون تجربة خاصة يلجأون إلى الرسم للتعبير عن الأثر الديناميكى الذى تتركه هذه التجربة فى نفوسهم .

وليس الدور الذى تلعبه الألوان والخطوط فى حياة الطفل النفسية بأقل خطراً من الدور الذى تلعبه أيضاً فى حياة البالغ فكما أنها من وسائل التعبير عن الشخصية فى مرحلة الطفولة فهى أيضاً تزيح الستار عن جوانب كثيرة فى مجاهل البالغ ، ويقال إن الشاعر سترندبرج Strindberg انقلب إلى الرسم عندما وجد أن وسيلة التعبير اللفظى قاصرة عن إخراج صورة شعوره الحقيق إلى الخارج ؛ ويقول هربرت ريد فى كتابه معنى الفن « إذا أردنا أن نخبر عن آراء فالكلام وسيلة جيدة ولكنا إذا شئنا أن ننقل مشاعر أو أحاسيس فليس خير من أن نلجأ إلى الرسم . وكأن ما يذكره لويس دانز فى كتابه It is still the morning اعتراف عميق لا مفر من التصريح به حين يقول « لم تكن لدى طيلة حياتى فكرة صحيحة عن الرسم ، والآن وللمرة الأولى استطيع أن أقول : قد فهمت . . . فليس الرسم شيئاً تراه بعينيك بل هو شىء تحسه بجسمك كله ، إنه رسم للألم والسعادة تماما كما هما فى الواقع » .

وعلى الرغم من أن هذا المعنى ليس جديداً ، وعلى الرغم من أننا نجده يتردد من وقت إلى آخر ، إلا أن هناك حقيقة جديدة رائعة هى أن الرسم تجربة واقعية عميقة لكل فنان يرسم ما يشعر به لا ما يراه فقط . فليس عسيراً إذا على البالغين وقد أدركوا هم هذه الحقيقة أن يدركوا أيضاً أنه عندما يرسم الأطفال وعلى الأخص

فيما بين الثانية والخامسة — هم أيضاً يعبرون عن الألم والسعادة فى الحياة The hurt and happiness in life

ويجدر بنا قبل أن نغادر هذا الجانب من جوانب الموضوع أن نشير إلى مسألة هامة وهى أنه وإن كانت طرق التعبير واحدة عند الأطفال جميعاً رغم اختلاف مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية وتباين أجناسهم وقومياتهم مما يجعلنا نميل إلى اعتبار أن أصولها إنما تمتد بعمق فى تاريخ الجنس البشرى والمجتمعات الإنسانية عامة . . . أقول على الرغم من ذلك يجب الا ننسى أن التعبير الذى يقدمه الطفل سواء عن طريق اللون أو الخط أو المسافة أو ما إلى ذلك إنما هو تعبير فردى يرجع فى صورته النهائية إلى كل طفل على حدة ويكوّن وإياه وحدة قائمة بذاتها . وغنى عن البيان أن العمى اللونى عند بعض الأطفال من أهم عوامل فشل مثل هذه التجارب ومن ثم وجب الكشف عليهم أولا للتأكد من سلامتهم فى هذه الناحية.

* * *

رسوم الأطفال تعكس ديناميكا تطورهم

وقبل أن نشرع فى دراسة كل من اللون والخط والمسافة على حدة . يحسن بنا أولا أن نلقى نظرة شاملة إلى ما يقدمه الأطفال فى هذه السن المبكرة لنتبين مدى قدرتهم على التعبير عن تطورهم الديناميكى . فهذه الملامح التى تبدو فى رسوم الطفل الفردية تعتبر دليلا حاسماً فى فهم حياة الطفل الداخلية وعوامل سلوكه الديناميكى وقد لاحظ جزل Gesell(١) أن الأطفال فى هذه السن — بين الثانية والرابعة — يعبرون عن ذواتهم بما يبلغ الغاية ويصل إلى حد الكمال فهم مدفوعون دائماً إلى الكشف عما يشعرون به بطريقة لاشعورية لا اصطناع فيها ولا افتعال .

يتكون عالم الأشياء لدى الطفل من العناصر الآتية(٢) : الزمن ، المسافة ، العدد ، الشكل ، اللون ، السببية ، ويتمكن الطفل من السيطرة على هذه العناصر بدرجات متفاوتة : أولا عن طريق العضلات التى تحرك اليد ، وثانيا عن طريق حركة الأيدى والأرجل والعينين وهذه كلها تضع اللّبنات الأولى لأحكامه ومفهوماته التى ستأتى فيما بعد . فهو مثلا لا يستطيع أن يصل فى العدّ إلى ثلاثة قبل أن يتعلم

(١) A.L. Gesell, The First Five years of Life.

(٢) Infant and Child in the Culture of Today by A. Gesell & Frances Ilg. page 26.

أن يرفع أو يحرك الأشياء ، واحدة إثر واحدة بعينيه ثم بأصابعه . كما أن تطور إدراكه للمسافة يتبع أيضاً تطور نمو جهازه العصبي ، واستعمال القلم يكشف عن هذا بوضوح ففي سن الثانية يرسم الطفل أعمدة رأسية ثم تأتي بعد ذلك الخطوط الأفقية ثم تظهر الرابطة بين هذين معاً في شكل صليب أو مربع وأخيراً يأتي الخط المائل ، وهذا على عكس ما يبدو للوهلة الأولى من أن الخط المائل أسهل في رسمه عند الطفل من الخط المستقيم إذ أن هذا الأخير يحتاج إلى شهور عديدة من النمو العصبي المتزايد فنحن لا نتوقع أن يرسم طفل جوهرة قبل ٦ أو سبع سنين . وكما ينمو الطفل في عالم الأشياء ينمو أيضاً في عالم الأشخاص وكليهما مرتبط بالآخر أشد الارتباط والتمييز بينهما جزء من هذا النمو .

من هنا يتبين لنا مدى الأثر الذي للعامل البيولوجي في قدرة الطفل على التعبير . ونستطيع الآن أن نورد بعض الأمثلة التي تبين كيف أن رسوم الأطفال تعكس ديناميكا تطوراتهم : أما المثال الأول فقد إقتبسناه من Painting & Personality وبطلته Aileen تلك الطفلة المهمومة غير السعيدة التي لا تني عن البكاء أو الصراخ . كانت Aileen تميل دائماً إلى التفرد والعزلة والبعد عن الآخرين ، وكانت نظرتها إلى الحياة نظرة خيالية وجدانية أكثر منها موضوعية منطقية ، فكانت إذا ما أحست ضيقا ترتقي مقعداً عالياً أو شجرة صغيرة أو أي مكان مرتفع . وقد لوحظ دائماً أن ما يصدر عنها من أشكال صلصالية أو ما تصممه باستعمال الكتل الخشبية يتجه دائماً إلى تصميم الأعمدة المرتفعة حيث تضع عليها أمرأة أو تجلس هي نفسها عليه. وكانت آلين تشير إلى بقع حمراء في رسومها على أنها « البيت » The home وقد لوحظ بالتتبع الدوري لعدة سنين أنها كانت تعود إلى رسم هذا الأنموذج الأصم كلما بدت غير سعيدة أو انتابها فترة من الضيق والهم (١).

فإذا كشفنا الستار عن حياة Aileen الخاصة وجدنا أنها ابنة لوالدين مطلقين وكلاهما متزوج أما آلين الضحية العزلاء التي كانت تتأرجح بين منزل والدها (وقد أنجب من زوجته الجديدة) ومنزل والدتها (التي كانت لها مشاغلها الخاصة إذ كانت تهتم بالرقص وتأمل أن تقيم عليه مستقبلها) فما كانت لتجد صدى لحاجاتها العاطفية في هذه السن المبكرة ، ومن هنا كانت إشاراتها المتوالية القلقة إلى « المنزل » أو البيت حتى لقد كانت تسأل عما إذا كانت ستذهب إلى البيت بينما هي في البيت .

(١) يرجع إلى هذا النموذج في كتاب : Painting & Personality, plates 3-5

أما المثال الثانى فهو تجربة خاصة أجريتها على طفلة تبلغ الخامسة من عمرها تدعى « سنية » فبعد أن تركت لها أدوات الرسم لتخط عليها ما تشاء قدمت لى « عروسة » وقد لاحظت على خلاف رسومها السابقة قبل عدة أشهر لنموذج العروسة أيضاً أنها قد أضافت أذنان كبيرتان كبراً ملحوظاً ، وكان الدافع إلى هذه الإضافة الطارئة هو أن أختا لها تكبرها سنا قد ثقب لها والداها ثقباً فى كلا أذنيها استعداداً لوضع قرط فيه بينما رفضا ذلك بالنسبة لها لأنها صغيرة بعد (شكل ١ ، شكل ٢)

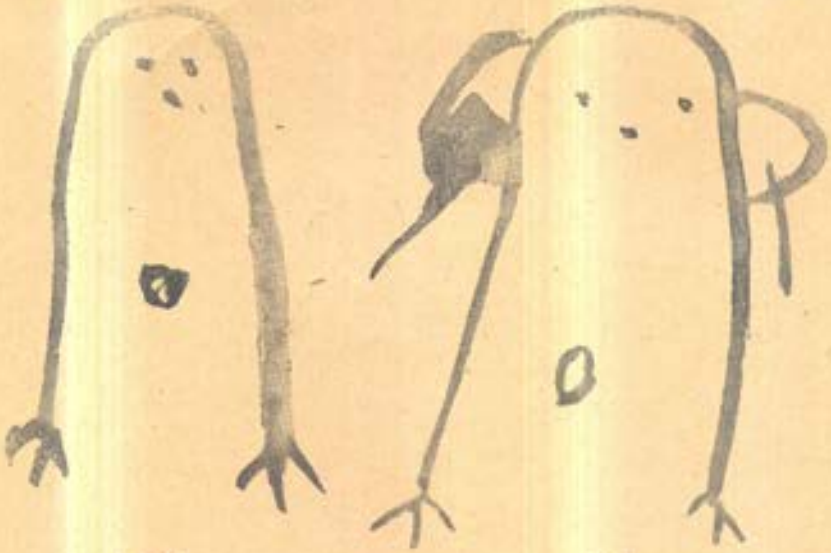

شكل ١ شكل ٢

والملاحظ هنا أن هذه الطفلة التى لم تكن لتحس وجود الأذن قبل هذه الحادثة قد طغى فى وجدانها فجأة الإحساس أو الشعور بأهمية الأذن التى تيسر لها لبس القرط كأختها ، فلم تكن الأذن هى بيت القصيد ، ولكنه القرط ، غير أنه لا قرط بلا أذن ، فالأذن تعدل — الآن — فى أهميتها أهمية القرط ذاته والثقب الذى يجب أن يكون فيها لا يقل عنها أهمية ، ومن ثم كان هذا التفاعل الديناميكى المتكامل (هو متكامل لأنه شمل مختلف نواحى حياة الطفل الشعورية والعقلية والفسيولوجية) سببا فى ظهور الأذن آنئذاك .

وقد لاحظت عند طفلة أخرى سنها خمس سنوات وتسكن الريف مع عائلتها — ميلا غريباً إلى رسم الدواب كالفرس والحصان والحمار ، وكانت تلازم ظاهرة رسم هذه الدواب كثرة الأطراف (الأرجل والأيدى) ، ورغم أن هذه الطفلة

قد تركت قريتها منذ أكثر من ستة أشهر لتعمل كخادم فى القاهرة إلا أن هذا الاتجاه كان ملحوظا بسهولة . وبسؤال والديها تبين لى من حديثهما أن الطفلة قد شاء لها القدر أن تشهد حادثة نفق فيها فرس لبعض أهل القرية ومات لساعته . وهكذا استقر هذا الحادث فى شعورها غير الواعى وراح يظهر كلما أتيحت له الفرصة المناسبة .

* * *

اللون كوسيلة للتعبير عن تطور الطفل الديناميكى

لا مشاحّة أن اللون بين وسائل التعبير الثلاث التى نحن بصددها أهمها وأعظمها خطراً . فهو من حيث قدرته على التفسير أو التعبير يكشف مباشرة عن نوازع الطفل الوجدانية ، بل لقد ثبت أن الميل الشديد عند الطفل إلى استعمال الألوان يتساوق دائما والدوافع العاطفية العنيفة ، وتؤكد النتائج الآتية هذه الحقائق .

١ — يميل الأطفال إلى التعبير عن أنفسهم بالألوان (على عكس الخطوط أو المسافات) خلال تلك المرحلة من النمو التى يكونون فيها أكثر عاطفية ، ولا يستطيعون فيها امتلاك زمام هذه العواطف .

٢ — يميل اللون إلى أن يكون أوضح وأشد ظهوراً فى رسوم البنات منه فى رسوم البنين ، فإذا عرفنا أن الأطفال من جنس الأناس أكثر عاطفية من الأطفال من جنس الذكور أدركنا أهمية اللون فى التعبير العاطفى .

٣ — بمقارنة مجموعة من الأطفال تميل إلى استعمال اللون بمجموعة أخرى تميل إلى استعمال الخط لوحظ أن المجموعة الثانية أكثر امتلاكا لزمام عواطفها وأميل إلى التقدير العقلى من المجموعة الأولى .

والألوان مجموعتان : مجموعة باردة ، ومجموعة حارة أما المجموعة الحارة Warm Colours فتشمل اللون الأحمر ، والأصفر ، والبرتقالى ، أما المجموعة الباردة فتشمل خصوصاً الألوان : الأزرق ، والأسود ، والأخضر ، والبنى ، وقد لاحظت الأستاذة Griffiths (١) أثناء تجارب قامت بها فى مجموعتين من الأطفال أن هناك ميلا عند عدد منهم لوضع الألوان بعضها فوق بعض بينما البعض الآخر يستعمل اللون الواحد لعدة أيام متوالية دون تغيير ، وهى تذكر على الأخص حالة طفل اعتاد استعمال لون واحد لمدة طويلة ثم انفجر فجأة فى استعمال

(١) A Study of Imagination in early Childhood, Page 348.

الألوان المختلفة وأمعن فيه . فإذا القينا جانبا اعتبار تغير الحالات النفسية بين حين وآخر فإن وضع الألوان بعضها فوق بعض يؤيد إلى حد كبير فكرة تقسيم الألوان إلى مجموعتين : حارة وباردة وقد وجدت أنموذجاً رائعاً لحالة كهذه أثناء التجارب التى أجريتها فى دار الحضانة التابعة للإرسالية الأسقفية بالقاهرة ، فقد رسم الطفل « سعيد » بقعة كبيرة حمراء ولكنه لم يلبث أن أحس أنه غير راض عنها فغطاها بلون آخر هو اللون الأزرق ثم أردف باللون الأسود ، وعند ذلك أصبح راضياً عن الرسم فإذا عرفنا أن سعيدا ينضم إلى مجموعة الألوان الباردة عرفنا سر رضاءه عن رسمه الأخير وسخطه على الرسم الأول .

يميل الأطفال الذين يستعملون الألوان : الأحمر ، والأصفر ، والبرتقالى إلى أن يعبروا عن عواطفهم تعبيرا واضحاً فى سلوكهم فتكون علاقاتهم بالآخرين حارة قوية ويغلب عليهم الاهتمام بالذات Self-centered Orientation ولذا كان ميلهم إلى الأعتماد على الآخرين وسيلة لإبراز هذه العواطف كما أن لديهم استعداداً خاصاً للتكيف والانسجام والتوافق فى أوساطهم الاجتماعية أما أطفال المجموعة الباردة وهى الأزرق والأسود والأخضر والبنى فيتميزون بمقدرتهم الكافية على السيطرة على أنفسهم والتحكم فيها وهم أميل إلى روح النقد ولا يثقون بالآخرين ، ويمكن وصفهم بأنهم « مسيطرون بآرائهم » ، « ذوو ميول عقلية » ، « لهم عزيمة قوية » ، « أنانيون » ، « يلعبون بمفردهم » ، « لا يعبأون ولا يعتمدون على الآخرين الأكبر سنا »

ملاحظات على الأطفال الذين يستعملون اللون الأحمر :

بة بز أطفال المجموعة الحارة بوجه عام وأولئك الذين يستعملون اللون الأحمر على وجه خاص بقوة عواطفهم وعرامتها ، فإلى جانب أنهم يظهرون ميلا واضحا للتصرف بحرية فتكون مظاهر سلوكهم هى فى الوقت ذاته مظاهر حياتهم النفسية . وقد كانت التقارير التى قدمت عنهم تشير دائماً إلى « العلاقات الطيبة بينهم وبين من هم أكبر منهم سناً » وإلى « تعاونهم فى أثناء اللعب » وتصفهم « بالانسجام الرقيق » وقد لوحظ أن أطفال المجموعة الباردة يميلون أحيانا إلى استعمال اللون الأحمر فى فترات معينة يبدون خلالها « أكثر ميلا إلى الحياة الاجتماعية » أو « سعداء » أو « متفتحين للخارج أكثر من المعتاد » .

وقد لوحظ أيضاً أن الميل إلى استعمال اللون الأحمر لا يعبر دائماً عن « التوافق

الطيب » أو « الشعور بالسعادة » ولكنه فى حالات معينة يعكس تجربة عاطفية حادة إما أن تكون شعور قوى بالعداء والكراهية أو عرامة فى الحب . وحينئذ تكون الخطوط ثقيلة مستقيمة وغالباً ما تكون متعامدة على عكس كثير من الأطفال الآخرين الذين يستعملون اللون الأحمر فى خطوط دائرية خفيفة عندما يحسون سعادة ورقة وصلات عاطفية غير عادية مع الآخرين .

ملاحظات على الأطفال الذين يستعملون اللون الأصفر :

يغلب على هؤلاء الأطفال الاتجاه العاطفى أيضاً فهم لا يعتمدون على أنفسهم بل يحبون دائماً أن يظهروا بمظهر الطفولة وعلاقاتهم بزملائهم طيبة ، محبوبون ، متحمسون ، وهم يميلون بل يرغبون أن يساعدهم الآخرين وخاصة من هم أكبر منهم سنا ، ومن ثم يحاولون لفت نظرهم إليهم . ولهذا فإن الاهتمام باللون الأصفر يتضاءل كلما تقدموا فى العمر ويحل محله الاهتمام باللون الأزرق . ويستعمل الأطفال هذا اللون فى حالات سرورهم أو شعورهم بالسعادة دون إضافة لون آخر إليه . أما إذا شاب هذه السعادة كدر فإنهم يضيفون إليه لونا آخر هو الأزرق غالباً .

على أن حب الظهور بمظهر الطفل هو أهم ما يميز هؤلاء الأطفال الذين يميلون للّون الأصفر ومن ثم يشتد إقبالهم عليه عند قدوم طفل جديد فى العائلة فقدوم طفل جديد يملأ مكانهم يثير فى نفوسهم الرغبة فى الاحتفاظ به فإذا لم تجد هذه المحاولات بدأوا فى استعمال اللون الأزرق .

ملاحظات على الأطفال الذين يستعملون اللون الأزرق :

اللون الأزرق شائع بين الأطفال فهو يعبر عن مراحل نمو الطفل ومدى تطوره العقلى . فالأطفال الذين يستعملون اللون الأزرق على عكس أولئك الذين يستعملون اللون الأحمر تكون رسومهم على شكل دوائر وخطوط بدلا من البقع التى يستعملها من يفضلون اللون الأحمر . وقد لوحظ أن الأطفال عموما يميلون إلى استعمال هذا اللون بين الرابعة والخامسة إذ أنه فى ذلك الوقت يبدأ الأطفال فى الاعتماد على أنفسهم والتحكم فى عواطفهم . ومن ثم كان هذا اللون يساوق « التحكم الواعى للشعور » دائماً ولكنه إلى جانب أنه يعبر عن مرحلة التطور العقلى للطفل وإيذاناً

بخروجه من مرحلة الطفولة إلى مرحلة يبدو فيها أكثر اعتماداً على النفس وأشد ميلا إلى تحكيم العقل لا العاطفة إلى جانب هذا يعبر اللون الأزرق عن حالات القلق التى تنتاب الطفل خصوصا عند قدوم أو قرب قدوم طفل جديد إلى الأسرة حتى لقد سمى بالأزرق القلق (Anxiety blue) .

ويتميز استعمال اللون الأزرق بالميل إلى النظافة فى حين أن استعمال اللون الأصفر مثلا يبدو دائما على هيئة لطخ قذرة .

ولا يتسع المقام هنا لإيراد أكثر من مثال واحد بين الأمثلة العديدة التى صادفتنى أثناء التجارب التى قمت بها فى دار الحضانة المشار إليها والتى تؤكد هذه الحقائق الخاصة باللون الأزرق .

« متولى » طفل فى الرابعة من عمره كان تقرير معلمته عنه أنه طفل « غير طيع » شديد الثقة بنفسه ، « يعتمد عليها فى تحقيق غاياته » وقد لاحظت أنه شديد الحذر فى علاقته بالغرباء ، وقد كان ميله إلى الأزرق واضحا حتى أنى عندما قدمت له بعض رسومه الأولى — وكانت باللون الأحمر — أسرع فغطاها باللون الأزرق وهكذا بدت جميع لوحاته التى قدمها بهذا اللون لا غير . وقد كان يبلغ به الأمر أحيانا أن يستغرق فى التلوين فلا يشعر بما حوله وقد انتهى مرة من إحداها ، وإذا به يرفعها أمام عينيه بينما بدت على وجهه علائم السرور والارتياح ويقول « ها أرسم رسمة حلوة » فإذا اتخذنا هذه العبارة دليلا على ارتياحه إلى ما رسمه وإذا ما عرفنا أنه أطلق على رسمه اسم « شمسية » وهو عنوان اعتاد أن يعطيه بعض رسومه . إذا ما عرفنا كل هذا وثقنا أن « متولى » يعبر عن مجموعة الأطفال التى تستعمل اللون الأزرق أحسن تعبير (لوحة رقم ٣) .

ولمتولى ظاهرة جديدة لعلها لم ترد فى الأبحاث السابقة . فقد لفت نظرى أنه يميل ميلا ظاهراً إلى استعمال القلم والفرشاة معاً فى الرسم الواحد ، فقد كان يصر على أن يبدأ برسم دائرة بالقلم ثم يملأها باللون الأزرق . واستعمال القلم هنا يرفع من قيمة الحقائق التى أشرنا إليها ويؤكدها تأكيداً حاسماً فكما سنذكر بعد قليل أن الميل إلى الخط عند الطفل يكشف عن درجة التحكم التى يقوم بها الطفل فى نفسه واتجاه هذا التحكم فستبين إلى حد كبير مدى الرابطة بين استعمال الخط واللون الأزرق معا فى رسم واحد .

ملاحظات على الأطفال الذين يستعملون اللون الأسود :

يعبر اللون الأسود عن اتجاهين متقابلين : أما الاتجاه الأول فهو التوافق والانسجام فى المجتمع فى ظاهر الأمر فهم فى توافقهم هذا يدركون أنه ضرورة اجتماعية لا مفر من الخضوع لها وإلا نبذهم المجتمع ووقعوا تحت طائلة العقاب فهم إذن يتظاهرون بما لا يبطنون .

أما الاتجاه الثانى فهو عكس الأول تماما : ميل إلى الوحدة ونفور شديد من المجتمع ، وهم أحيانا يخفون انفعالاتهم ولا يرغبون فى إبرازها على وجه ما فالتقارير عنهم تشير إلى أنهم « يحتاطون لأنفسهم ولإعمالهم » « يحفظهم التدخل فى أمورهم » . على أن هذين الاتجاهين يتقابلان عند نقطة أساسية واحدة هى « الشعور بالخوف والرهبة سواء كان مصدر هذا الخوف فرد (والد قاس) أو سلطة « مدرس أو أخ أكبر » .

لم يكن غريبا إذن أن تقبل «سعاد» على اللون الأسود وهى الفتاة المتوحدة ذات الملامح الحزينة والتى يبدو على وجهها شعور عميق بالأسى . لم تكن تشارك فى اللعب الفردى أو الجماعى فبينما كانت المعلمة تعلم الأطفال لعبة تتطلب القفز بين حين وآخر كانت سعاد تظل واقفة فى اتجاه لا يتغير ، وكان من النادر أن تتفوه بكلمة ولكن إذا أتيح لها أن تنفرد فإنها تقبل على اللعب وتصدر عنها أحيانا بعض الألفاظ . وكان بين الملاحظات التى سجلتها عنها يوم ٨ — ٧ — ٤٩ ما يأتى « اعتزلت الأطفال وانتحت مكانا قصياً حيث جلست ترقب الجميع فى صمت . . . انتهزت فرصة فأخذت تهز الأرجوحة الخالية وحدها وكانت فى عملها هذا نشيطة ، وعندما بلغ نشاطها قمته حاولت دعوة طفلا لمشاركتها ، ولكنها ما لبثت أن عدلت عن ذلك عند أول إعراض منه . لم تجب مرة على سؤال وجهته إليها ولكنها كانت تنتهز فرصة دعوتها إلى الرسم فتقبل عليه ، وقد لاحظت أنها لا تطلب ورقا جديداً كلما فرغت من الأولى بل كانت تظل ترسم دوائر مستعملة اللون الأسود » . (شكل رقم ٤)

تعيش سعاد مع أسرتها المكونة من أبيها وأمها وأخيها الأصغر الذى يبلغ من العمر ٨ شهور فى حجرة واحدة فى أحد الأحياء الشعبية . وتقول تقارير المعلمة عنها إن أمها تكثر من معاقبتها وتشتد أحيانا فهى ترهبها أشد الرهبة بل وتنتهز

الفرصة التى تفترق فيها عن أمها لتمضى بضع ساعات فى دار الحضانة

(شكل ٤)

ملاحظات أخيرة على استعمال اللون :

ليس اللون وحده هو الذى يعكس شخصية الطفل فى تطورها الحركى المتكامل ولكن طريقة وضع اللون على اللوحة لها أيضاً اعتبارها وأهميتها . وقد وجد أن هناك أربع طرق لوضع اللون على اللوحة :

١ — وضع لون فوق آخر ٢ — وضع الألوان منفصلة متباعدة ٣ — مزج الألوان

٤ — مزج الألوان بلا تمييز ولا تفريق

١ — وضع لون فوق آخر : يلجأ الأطفال إلى تغطية الألوان بعضها ببعض حين يودون إخفاء مشاعرهم وحالاتهم النفسية لسبب أو لآخر فالتغطية هنا تقوم بنفس الدور الذى يقوم به التمويه (الكاموفلاج) فى الحرب فيمنع «العدو» عن معرفة شىء يجب إخفاؤه وهذا فإن الألوان الباردة هى التى تغطى الألوان الحاره ، ولعله من المهم أن نذكر أن اللون الأزرق بين الألوان الباردة جميعا هو الذى يستعمله الأطفال بإستثناءات نادرة فى تغطية الألوان الثانية واللون الأزرق كما

سبق أن أشرنا هو الذى يدل على « التحكم الواعى للشعور » .

٢ — وضع الألوان منفصلة متباعدة : بينما تكون رغبة الأطفال الذين يلجأون إلى تغطية الألوان بعضها ببعض هى إخفاء مشاعرهم تكون رغبة أولئك الذين يضعونها بعضها بجوار بعض دون خلط بينها هى الكشف عن ذواتهم ووضعها وضعاً صريحاً حازما . ولهذا فلا توجد فى شخصياتهم العقد التى نجدها عند غيرهم . ويبدو هذا الاتجاه فى الرسم واضحاً عند الأطفال الذين يهتمون اهتماماً واعيا بالتكيف مع المطالب الخارجية .

وفى حالة الطفل « نشأت » نجد أنه وهو الطفل الوحيد المدلل من أبويه ، والذى تعود أن تجاب مطالبه فلا يجد ضرورة قط تدفعه إلى إخفائها أو تأجيلها ، نجد أن رسومه كلها لا تعدو أن تكون بقعاً صغيرة جداً متباعد بعضها عن بعض ، وهو لا يكاد يضع منها ثلاث أو أربع حتى يصيح « أنا عاوز ورقة تانى . . . خلاص ده » (شكل رقم ٥) .

(شكل ٥)

٣ — مزج الألوان : يعبر مزج الألوان عن علاقات طيبة وقدرة على التوافق فى المجتمع بسهولة وبلا تزمت بعكس كما الحال عند الأطفال الذين يلجأون إلى فصل الألوان بعضها عن بعض . بل وتدل أيضاً على مشاعر أكثر حرية وأبسط تكوينا .

٤ — خلط الألوان بلا تمييز : طبيعى أن يكون خلط الألوان بلا تمييز هو أول عهد الطفل باستعمال الألوان فى هذا الوقت لا يكون الطفل قد أدرك معنى اللون إذ يتطلب ذلك وقتا غير قصير . ولهذا فإن خلط الألوان إن جاء متأخراً

كشف عن رغبة فى العودة إلى الطفولة الأولى . وقد يكون خلط الألوان دليلا على رغبة الطفل فى تلويث أو تلطيخ الورقة ليس إلا .

الخط كوسيلة للتعبير عن تطور الطفل الديناميكى

يمتاز التعبير بالخط والشكل عن التعبير باللون بخاصية جديدة ليست فى صميمها سيكولوجية ولكنها تكشف عن تطور جديد فى التحكم الفسيولوجى لحركات اليد . فنمو العضلات عند الطفل يكيّف مع الزمن قدرته على رسم أنواع الخطوط سواء كانت مستقيمة أو مائلة أو دائرية . وكما أن اللون يعطى الدلائل الواضحة لطبيعة حياة الطفل الوجدانية ودرجتها فإن الخط يبين مدى القدرة على السيطرة على العواطف والاندفاعات الوجدانية ، وهو إلى جانب ذلك يعطى للشكل معالم مفهومة أو رمزية قصد بها الطفل إلى التعبير عن مشاكل خاصة فيكشف بذلك عن :

ا — كمية النشاط الذى يبذله الطفل .

ب — درجة التحكم التى يقوم بها الطفل .

جـ — الاتجاهات التى يستغل فيها هذا التحكم .

ويجب أن نلاحظ هنا مرة أخرى أن هذه الديناميكا التكاملية تبدو واضحة إذا ما لاحظنا كلمات الطفل وحركاته وإشاراته أثناء الرسم . وقد تبين أيضاً أن الأطفال الذين يميلون إلى استعمال الخط بدلا من اللون يكشفون عن سلوك أميل إلى المنطق والتبصر العقلى .

ويجب أن نذكر هنا هاتين الظاهرتين اللتين تلابسان الانتقال من اللون إلى الخط .

١ — الانتقال إلى استعمال الخط يصاحب الانتقال السريع إلى التعبير الموضوعى بدلا من التعبير الذاتى .

٢ — يعود بعض الأطفال إلى استعمال اللون أحيانا بدلا من الاستمرار فى استعمال الخط وثمة حقائق أخرى يمكن فهمها واستنتاجها من ملاحظات أن بعض الأطفال يتجهون خصوصا إلى رسم الدوائر والبعض الآخر لا يرسم إلا الأعمدة والخطوط الرأسية .

أما الأطفال الذين يرسمون خطوطا متقاطعة أشبه ما تكون « بالصلبان » حتى لكأنهم يرغبون فى طمس معالمها فهؤلاء يظهرون دائماً اهتمامات جنسية متوازية ،

وقد ثبت أن هناك علاقة وثيقة بين ميول الذكر والنماذج المتعامدة ، وميول الأنثى والنماذج الدائرية . وفى كتاب (Painting Personality) مثال طريف [١] لطفلة كان ميلها واضحا إلى أن تكون ولداً فكانت تلبس ملابس الصبيان كما أنها كانت تتبول وهى واقفة . ولهذا فقد كانت ترسم خطوطاً عمودية ، ولكن حدث أن أحست برغبتها فى أن تتكيف مع مجتمعها من الإناث فأقبلت على خطوطها الرأسية تشوهها وتلوثها ومن ثم أصبحت الأعمدة أقل وأقصر وغير واضحة .

أشرنا فى مفتتح هذا البحث إلى المراحل التى يمر فيها الطفل فى استعماله للخط والشكل عند العالم الألمانى (Kerschensteiner) [٢] . غير أن عدد هذه المراحل ليس ثابتا عند كثير من العلماء فسرل برت يجعل هذه المراحل سبع ، بينما (Griffiths) تجعلها إحدى عشرة مرحلة ، ولما كانت هذه المراحل أكثر تفصيلا وتمشياً مع منطق التطور عند الطفل فقد رأينا أن نشير إليها باختصار ولعل أهمية محاولة الأستاذة (Griffiths) ترجع إلى أنها حاولت دائماً ربط مراحل هذا التطور بالعمر العقلى للطفل ، كما فى الجدول الآتى

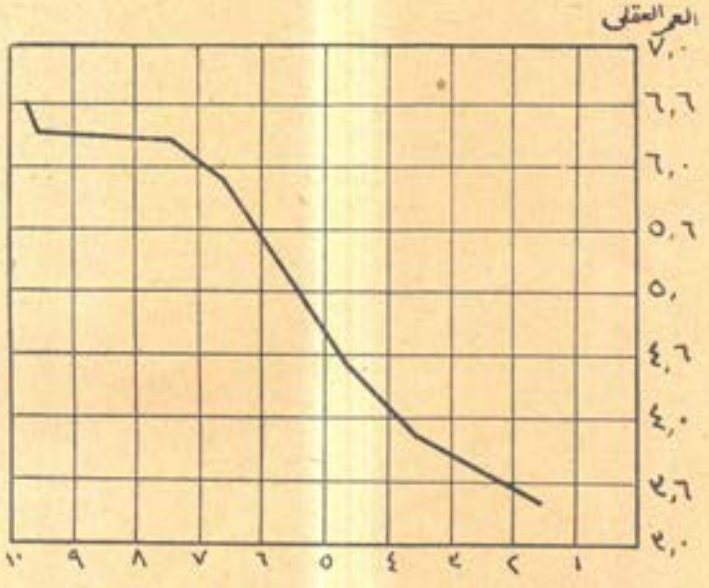

(١) Page 71 (٢) Mental and Scholastic Tests.

مراحل الرسم

المرحلة الأولى : (شخبطة) لا يمكن تمييزها .

المرحلة الثانية : أشكال هندسية خشنة وغالبا ما تكون دوائر أو مربعات وأحيانا تعطى للرسوم أسماء .

المرحلة الثالثة : تعمل بعض الموضوعات وتربط بالخطوط والدوائر ولكن الدوائر والخطوط لم تتصل حتى الآن .

المرحلة الرابعة : ربط الدوائر والخطوط لترسم موضوعات أخرى كثيرة والتى يكون بينها الإنسان .

المرحلة الخامسة : توضع موضوعات كثيرة بعضها بجوار بعض وهى مرسومة بسرعة ويعطى لها اسماً .

المرحلة السادسة : ميل إلى التركيز فى موضوع معين واحد فى وقت واحد وتوجد بعض التفاصيل .

المرحلة السابعة : يرتب الرسم بطريقة أكثر دقة ولكن ثمة موضوعات واضحة الترابط .

المرحلة الثامنة : تظهر بعض الموضوعات المنفصلة ومرتبطة بعلاقات واضحة .

المرحلة التاسعة : تظهر الصورة الموحدة .

المرحلة العاشرة : تكاثر الصور .

المرحلة الحادية عشر : توسيع الاتجاه الأساسى بوضع مجموعات أخرى فى الصورة .

ويلاحظ أن الطفل فى المرحلة الرابعة يبدأ فى رسم دائرة مرتبطة بخطوط مستقيمة وهنا تلوح معالم الشكل الإنسانى لأول مرة ، ثم يشرع الطفل فى صقله وتهذيبه حتى يصل إلى حالة يرضى عنها فترة ما . وحتى يصل الطفل إلى هذه المرحلة يمر أولا بأربع مراحل :

ا ــ محاولة لرسم الشكل الإنسانى فى المرحلة الأولى .

ب ـ محاولة لرسم الشكل الإنسانى من دائرة واحدة أو مربع واحد .

جـ – محاولة لرسم الشكل الإنسانى بربط أشكال هندسية .
د – محاولة لرسم الشكل الإنسانى من مجموعة مربعات .

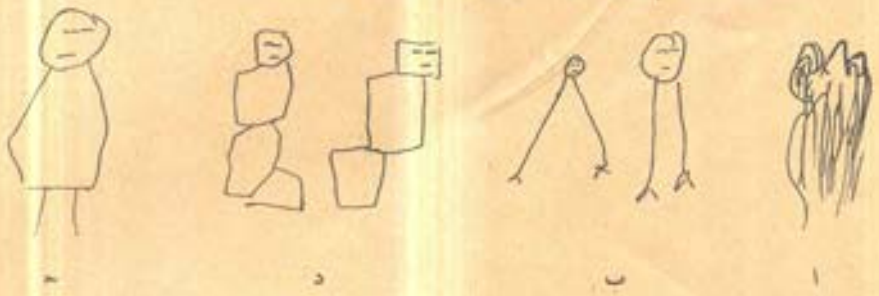

(شكل رقم ٦)

المسافة كوسيلة للتعبير عن تطور الطفل الديناميكى

يقصد بالمسافة الحدود المقدمة للطفل للرسم داخلها سواء كانت هذه الحدود هوامش أو مربعات أو قطعة من الورق مثبتة فوق لوحة خشبية ، ومن ثم كانت هناك شروط خاصة يجب أن يعامل بها الأطفال لاكتشاف هذه الناحية فيهم – ناحية استعمال المسافة فى رسومهم – فمثلا وجب أن يقدم للأطفال داخل المجموعة الواحدة أوراقاً ذات مسطحات ثابتة المساحة (١٧ ٢٢ بوصة مثلا) .

وكما أن استعمال اللون والخط يكشفان عن حياة الطفل الداخلية ويلقيان ضوءاً على اتجاهاته العاطفية والعقلية فكذلك يوضح لنا أيضاً استخدامه للمسافة نوع علاقته وصلته بالبيئة التى حوله . وفى صورة مجملة نستطيع أن نكشف عن هذه الحقائق عند الطفل إذا ما لاحظنا المسائل الآتية :

١ – مدى المسافة المستعملة .
٢ – استعمال المسافة مع توجه اهتمام خاص للمكان .
٣ – الطريقة التى تستعمل فى المسافة .

أما من حيث مدى أو حدود المسافة المستعملة فثمة أربعة اعتبارات جديرة بالملاحظة : –

١ – هناك ميل لدى بعض الأطفال إلى الرسم خارج الحدود أى أنهم يتعدون الهوامش المطبوعة على الصفحة فليس بغريب إذاً أن نجد نفس هذا الميل إلى تخطى الحدود وعدم الاهتمام بما يمكن أن يتوقع من أمور يميزهم فى الحياة العامة ،

وهؤلاء الأطفال يبدون على نحو من الفجاجة وعدم النضوج فى سلوكهم العام . أما من الناحية الفسيولوجية فلم يكتمل بعد نمو عضلاتهم . وكم يبدو الأمر طريفاً حين نعرف أن بين الأطفال الذين يرغبون دائماً فى مساحة من الورق أكبر من المعطاة لهم يرغبون أيضاً فى « كمية » من الحب أكثر مما يتلقونه من الآخرين فالتقارير تشير عنهم دائماً إلى أنهم مهملون ومرفوضون فى منازلهم .

٢ ــ يرسم بعض الأطفال فينتشر رسمه فى طول الصفحة وعرضها وليس من الضرورى أن يتعدى الحدود المرسومة عليها وهؤلاء تنقصهم المقدرة على التحكم فى ذواتهم كما أنهم ينشدون دائماً مساعدة الآخرين ويميلون دائما إلى السلبية فى تصرفاتهم .

٣ ــ الرسوم اللونية منها والقلمية التى تبدو على الصفحة معزولة فى ركن منه تشير إلى أن أصحابها منسحبون ولا اعتماد لهم فى دوافعهم على أنفسهم .

٤ ــ الأطفال الذين يرسمون فى حدود معقولة على الصفحة فلا يتعدون إلى خارج الحدود المرسومة بل تكون رسومهم متناسبة لا تميل لا إلى الانتشار ولا إلى التركيز فهؤلاء أيضا فى حياتهم العامة يسلكون بطرق متناسبة مع الوسط الخارجى .

أما من حيث استعمال المسافة مع اعتبار خاص للموضع فقد لوحظ .

١ ــ أن بعض الأطفال يركزون رسومهم فى قمة الصفحة يساعدهم طول أجسامهم على اختيار هذا الجزء وربما كان هذا سبب فى جعل المسألة معقدة ولكن لوحظ فى كثير من الدهشة أن بعض قصار الأطفال يصرون على الرسم فى أعلى الصفحة ولو اضطرهم الأمر إلى الصعود على كرسى أو شىء مرتفع وهؤلاء بوجه عام يظهرون ميولا سامية وقدرات رفيعة وكفاءات ممتازة .

٢ ــ لوحظ أن أربعة فقط من الأطفال فى تجارب الدكتورة هاتفيك يرسمون فى أسفل الصفحة وتؤكد التقارير التى قدمت عنهم أنهم « راسخون » مؤسسون تأسيساً وطيداً "firmly rooted"

٣ ــ يرسم بعض الأطفال فى الجانب الأيسر بينما يرسم البعض الآخر فى الجانب الأيمن ويرجع جانب كبير من هذا الاتجاه إلى أن بعضهم يسر (يستعملون اليد اليمنى) وبعضهم عسر (يستعملون اليد اليسرى) .

٤ ــ الأطفال الذين يرسمون فى وسط الصفحة أكثر اعتماداً على أنفسهم ونتيجة اهتمامهم إلى ذواتهم self-centered .

أما الطريقة التى تستعمل فى المسافة فهى إما :

١ – ضربات مبعثرة بالقلم أو الفرشاة وهؤلاء الذين تبدو رسومهم على هذا النحو يكونون أقل نضوجاً وأقل تحكما فى ذواتهم وسلوكهم متوتر عادة .

٢ – بعض الأطفال يرسم ويرسم فوق نفس المساحة over and over the same area وهؤلاء يعبرون عن نوازع الخوف والرهبة والانزعاج التى فى نفوسهم والتحكم فى نفوسهم والأسى وإذا رجعنا إلى الشكل رقم(٤) وهو للطفلة سعاد وجدنا أنها باستعمالها للون الأسود على هيئة دوائر دون محاولة تغييرها لمدة طويلة يؤكد هذه الحقيقة .

٣ – الأطفال الذين يعودون إلى الرسم أحيانا قليلة يبدون اعتماداً قويا على ذواتهم كما أنهم مصادقون للكبار محبوبون من الآخرين .

* * *

نكتفى بهذا القدر الموجز من الحديث عن ديناميكا اللون والخط والمسافة لننتقل إلى نقطة أخرى وإن تكن ليست فى صميم الموضوع إلا أنها تضع الحقائق التى إنتهينا إليها داخل إطارها الاجتماعى الذى هو فى الواقع الصورة النهائية للدراسات النفسية المتكاملة والتى عندها تنتهى . وأعنى بذلك اختبارات الذكاء عن طريق الرسم ، وليس ثمة شك فى أن هناك علاقة قوية بين الذكاء والتفاعل الديناميكى للعواطف الفردية فى المجتمع ، وفى كتاب مبادى علم النفس العام يقول الدكتور يوسف مراد « وقد حرصنا على ألا نفصل بين الكائن الحى وبيئته ، واتضح أخيراً أنهما يتفاعلان معا فى مراتب السلوك المختلفة من أدناها إلى أعلاها . وكانت الحقيقة الأساسية التى كادت تفرض وجودها فرضاً ، هى أن الكائن الحى وبيئته يكونان وحدة منظمة ، أو نظاماً ديناميكيا متكاملا يعمل دائماً بطريقة شبه كلية . . . وتتمثل هذه الوحدة فى شخصية الإنسان المندمج فى مجتمع » .

لهذا كان الذكاء هو جماع هذه الحقيقة التى ذكرناها آنفاً أو هو النتيجة العملية الأساسية لهذه الدراسة ولهذا فضلنا أن نختمها بإشارة موجزة إلى اختبار الذكاء الذى وضعته الأستاذة فلورنس جودإنف وهو موجود فى كتابها Measurement of Intellignce by Drawing 1926 Pp. XI + 17 ويحسن الرجوع إليه وهو الاختبار الوحيد الصالح لهذا الغرض حتى الآن على الرغم من النقود التى وجهت إليه على الأخص نقد الأستاذة Griffiths (مرجع رقم ٢ ص ٢٦٩) .

وبقى أن نشير إلى أن اختبار جودإنف وحدته رسم رجل من الذاكرة وقد

وضعت شروطه والنقط التى تعطى لكل جزء على حدة من أجزاء الرسم . ولكن الثابت كما ذكرنا أن اللون والمسافة أيضاً يلعبان دوراً أخطر من الدور الذى يلعبه الرسم بالقلم ونحن نرجو أن تتاح الفرصة لبعض الذين يهتمون بهذا النوع من الدراسة لوضع اختبار جديد للذكاء أعم وأشمل وأدق يكون أساسه اللون والخط والمسافة .

كمال زاخر لطيف

المراجع

1. Rosa H. Alschuler & La Berta Wiess Hattwick: *Painting and Personality;* A Study of young Children. The Univ. of Chicago Press, Vol. I.Pp. 282.
2. R. Griffiths: *A Study of Imagination in early Childhood.* London, Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., 1935. Pp. XIV + 367 .
3. Fl. Goodenough: *Measurement of Intelligence by Drawing.* Yonkers-on-Hudson, N.Y., World Book Co., 1936, Pp. XI + 177.
4. A. Gesell & L. Ilg. Frances: *Infant and Child in the Culture of To-day.* New York, Harper & Bros. 1943.

مبادىء علم النفس العام — الدكتور يوسف مراد — دار المعارف — مصر

Summary:

COLOUR, LINE AND SPACE
INTEGRATIVE DYNAMIC IN THE STUDY OF YOUNG CHILDREN

By

Kamal Zakher Latif

This experimental study deals with the two-three and four years old children. It has become over doubt that colour, line and space which children use in drawing have psychological and educational values and functions. Among the children, pressures of hostility, anger, fear, jealousy, love, need for ego-preservation and ego-satisfaction as well as need for dependance and independance were frequently evidenced.

As regards colour, it showed clues for the parallelism between itself and strong emotions. As for line, it showed the degree of control which the child was exercising. Space suggests the pattern of the child's relationship with his environ-ment.

Dr. Florence Goodenough based her Test of Intelligence by Drewing upon some of these facts. The author suggests that a fully reliable intelligence test by drawing should take into account the diagnostic value of colour beside those of line and space.